وهي معلّقة هناك، تدقّ خطواتها الباردة كصوت عكاز مفرد بلا توقف. تدق. تدق»[٧٠].

أطلنا الاقتباس السابق، مرغمين، لأنه يمثل مدخلاً ضرورياً لقراءة تمظهرات الساعة وتجلياتها وعلاقاتها المختلفة؛ فليس ثمة من كلمة نافلة فيه، إنه نص تأسيسي، يقول ويفتح آفاقاً للقول، إنه النص ـ البؤرة، منه تنفلت الخيوط الدلالية التي سيجرى تعميقها على امتداد السرد، وفيه تتكثف رؤية كل من حامد ومريم للزمن الضاغط ووطأته الثقيلة على النفس، فهما معاً، حامد ومريم، قد لاحظا أن للساعة «دقات معدنية» تشبه «صوت عكاز مفرد» وهذه الدقّات العاجزة المتكئة على عكاز يشي بالعجز، الملاحظة منذ البدء، هي التي ستتواصل على امتداد السرد حتى اللحظة الاخيرة التي تسبق نهايته، وبدء زمن آخر، وستتبدى هذه الدقّات عبر صور مختلفة ولكنها تصبّ في مجرى دلالي واحد، فهي، عبر رؤية مريم المنبثقة عبر توالي السرد، «الدقّات المعدنية المخنوقة في الجدار، أمامي، دقات النعش»[٧١]. وهي ما تبقى من حامد بعد غيابه «أصوات خطوات معدنية تدق على الجدار بلا نهاية مثل عكاز فقد اتجاهه ولم يتبق لي ما أفعله الا عدّها»[٧٢]. وهي «دقّات مبحوحة، قاطعة وساخرة تدقّ في الجدار بلا رحمة»[٧٣]. وهي أيضاً «تلك الدقّات الرهيبة للعكاز الذي فقد اتجاهه»[٧٤]. وهي صوت العكاز الذي «ينتزع نفسه بائساً وهو يدقّ خطواته الابدية المفردة في نعش صغير مغلق بإحكام»[٧٥]. إنها إذن دقات زمن ما يلبث ان يولد حتى يموت، لأنه يولد في نعش مغلق بإحكام ينتظر معجزة تفتح النعش أو ترسله الى قبر أبدي!

إن مريم التي رأت ما تنطوي عليه الساعة من تجسيد لزمن عاجز، ثم رأت فيها نعشاً، تستمر، على امتداد السرد في إقامة الموازاة، أي التقابل التجاوبي بين الساعة ـ النعش، وبينها، وفي اقامة تقابل ضدي بين دقات الساعة وخطوات حامد التي يقرعها بلا تردد فوق صدر الصحراء، وهو التقابل الذي تنهض الصحراء نفسها بإبرازه وإثراء دلالته، مثلما يؤكده حامد عبر حركته المتوثبة في الزمان. ونستطيع ان نرى بذره هذين الامرين في النص التأسيسي المشار اليه وذلك من خلال اثباته الايحائي لرؤيتين متغايرتين للزمن، وإشارته الى آليات اشتغاله، فثمة زمن مستقيم، وزمن مائل؛ فالساعة تكفّ عن الاشتغال حين تكون مائلة بينما تعمل حين تكون مستقيمة على الجدار، فتنسرب دقاتها في تسلسل وتوالٍ أفقي، وهكذا نكون بإزاء ثلاثة مفاهيم للزمن: زمن أفقي، وزمن مائل، وزمن رأسي يقف على النقيض من الزمن الاول. الزمن الافقي هو زمن التسلسل والتوالي، زمن يقذف باللحظات ويمضي، تجيء اللحظة وهي مسكونة بالموت، تقتل سابقتها لتحيا، فما تكاد تفعل حتى تموت، انه زمن للموت، يشتغل، ومن هنا وقع وطأته الثقيلة على الانسان الذي يتوق الى حياة الزمن، وحياته في الزمان، انه زمن الساعة ـ النعش المعلقة على جدار البيت. زمن حامد ومريم قبل ان يبادرا الى الفعل في الزمان. أما الزمن المائل فهو زمن بلا زمن، ووقت بلا وقت، إنه الفراغ المطلق والحياة خارج الحياة، سديم الكون قبل ان يكون والمخلوقات قبل ان تخلق، إنه زمن زكريا وأمثاله، زمن الاستكانة والسكون، والرضا بالحال، إنه الزمن الذي يقترح حامد على مريم ان تعبر اليه كي تعثر على هدأة البال: «إسمعي يا مريم، إذا كانت تلك الساعة اللعينة تسبب لك الأرق فلديّ الحل. أتعرفين يا مريم، إذا أملناها قليلاً الى الجانب توقف الرقّاص، أنا أعرف هذا النوع اللعين من ساعات الحائط، لا يتحرك رقّاصها الا اذا كانت معلّقة بصورة مستقيمة»[٧٦]. إن زكريا يرفض الزمن الافقي لأنه يذكّر بالزمن الذي مات والذي يموت، وهو أيضاً، يرفض الزمن الآخر الذي ذهب حامد لاجتراحه لأنه ينطوي على فكرة ان يكون الانسان فدائياً فادياً وفاعلاً في الحياة، وهي الفكرة التي تقف على الحدّ المناقض لاغراق زكريا في الخيانة، واستكانته، واستغراقه في النوم.